٢٠ خطبة عيد الأضحى

أُلقيت في الأستاد الرياضي بالإسكندريّة سنة ١٤٠٧هـ

الله أكبر. الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلاّ الله، الله أكبر. الله أكبر. ولله الحمد.

الحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات، الذي هدانا لهذا وما كنّا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، خصّنا بخير كتاب أُنزل، وأكرمنا بخير نبيّ أُرسل، وأتمّ علينا النعمة بأعظم دين شُرع، دين الإسلام: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائـــــــدة: ٣]، ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران: ٨٥].

وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله، أدّى الأمانة، وبلّغ الرسالة، ونصح للأمّة، وجاهد في الله حق جهاده، وتركنا على المحجة البيضاء.. على الطريقة الواضحة الغرّاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلاّ هالك، فمن يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فلا يضرّ إلاّ نفسه، ولا يضرّ الله شيئاً: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا..﴾ [الإســـراء: ٧]، ﴿.. وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٥٨].

اللّهم صلّ وسلّم وبارك على هذا النبي الكريم، وعلى آله وصحابته، وأحينا اللّهمّ على سنّته، وأمتنا على ملّته، واحشرنا في زمرته، مع الذين أنعمت عليهم من النبيّين والصّدّيقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً.

أما بعد فيا أيّها الإخوة المسلمون:

فهذا يوم العيد، عيد الأضحى، هذا يوم الحج الأكبر، يوم المؤتمر العظيم، الذين يقف فيه المسلمون محرمين متجرّدين لله تعالى، ملّبين مهلّلين: لّبيك اللهم لبيّك، لبيّك لا شريك لك لبيك، إنّ الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك.

يوم الحج الأكبر، هذا هو العيد الثاني للمسلمين.

وللمسلمين عيدان لا عيد بعدهما، ربط الله كلاً منهما بعبادة من عباداته الكبرى، وبشعيرة من شعائر الإسلام العظمى.

العيد الأوّل يأتي بعد عبادة الصوم، تأتي فرحة الفطر، و«للصائم فرحتان يفرحهما: إذا أفطر فرح بفطره، وإذا لقي ربّه فرح بصومه»[1]. إنّه يفرح كل يوم عند الإفطار بما وفّقه الله إليه من طاعة، ثم يفرح الفرحة الكبرى في الدنيا حينما يتم صيام الشهر، فتأتي فرحة العيد.

وأمّا العيد الثاني فيأتي بعد عبادة الحج، بعد أن يؤدّي الناس هذه الفريضة، أو هذه الشعيرة، بعد أن يقفوا في عرفات، بعد أن خرجوا من أوطانهم وغادروا أهليهم وأحبّاءهم مهاجرين إلى الله تبارك وتعالى.

فكأنّ العيد هنا وهناك، في الفطر وفي الأضحى جائزة أو مكافأة من الله تبارك وتعالى لعباده، كأنّه منحة ربانية لهم، على ما أدّوه من إحسان فريضة الصيام وإحسان فريضة الحج.

المعنى الرباني والمعنى الإنساني في أعياد الإسلام:

هذه هي الأعياد عندنا نحن المسلمين، يتجلّى فيها المعنى الرباني كما يتجلّى فيها المعنى الإنساني.

---

(١) مر تخريجه في صفحة (٣١٢).

يتجلّى فيها المعنى الرباني بربطها بعبادات الإسلام، ويتجلى فيها هذا المعنى أيضاً: إنّ العيد عيد صلاة وتكبير.

عرف الناس بعض الأعياد: انطلاقاً للشهوات، وركضاً وراء الملذّات، ولكن عيدنا نحن المسلمين يبدأ بالتكبير.. يبدأ بالصلاة، يوم العيد يوم صلاة لله تعالى قبل كلّ شيء.

هذه أعيادنا نحن المسلمين، نكبّر الله ونصلّي له، لا نهتف باسم مخلوق وإنّما نهتف باسم الله وحده، إذا هتف الناس باسم المخلوقين ـ صغروا أم كبروا ـ فالمسلمون في أعيادهم يقولون: الله أكبر الله أكبر.

هذا هو زينة الأعياد: «زيّنوا أعيادكم بالتكبير»[1].

الله أكبر الله أكبر الله أكبر، لا إله إلاّ الله الله أكبر، الله أكبر ولله الحمد.

في عيد الفطر قال الله تعالى في ختام آية الصيام: ﴿.. وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وفي عيد الأضحى شرع لنا النبي ﷺ التكبير عقب الصلوات منذ فجر يوم عرفة إلى عصر آخر أيّام التشريق (ثلاث وعشرين صلاة).

في ثلاث وعشرين صلاة يكبّر المسلم كلّما أدّى الصلاة: الله أكبر الله أكبر الله أكبر، لا إله إلاّ الله الله أكبر، الله أكبر ولله الحمد.

هكذا يتجلّى في أعيادنا نحن الأمة الإسلامية المعنيان الكبيران:

---

(١) رواه الطبراني في الصغير عن أنس، ورمز له السيوطي بالحسن (الجامع الصغير: ٢/ ٢٨)، وفي نسخة: عن أبي هريرة، وفي سنده عمر بن راشد وقد ضعّفه أحمد وابن معين والنسائي، وفيه بقية وقد رمي بالتدليس، قال ابن حجر: وعمر ضعيف ولا بأس بالباقين وبقيّة وإن كان مدلّسا فقد صرح بالتحديث، ينظر (فيض القدير للمناوي: ٤/ ٦٨ ـ ٦٩ برقم ٤٥٧٨).

المعنى الرباني: فالعيد مرتبط بهذه المعاني الإيمانيّة.

المعنى الإنساني: ألاّ ينسى الإنسان أخاه، ألاّ يفرح وحده، ألاّ يكون أنانيًا.

فرض زكاة الفطر في عيد الفطر:

هنا شرع الإسلام في عيد الفطر: زكاة الفطر، صدقة الفطر فرضها رسول الله ﷺ على الصغير والكبير والذكر والأنثى والحرّ والعبد من المسلمين، فرضها صاعاً من طعام[1]، طهرة للصائم من اللغو والرفث، وطعمة للمساكين[2]، وإغناءً لذوي الحاجة عن السؤال والطواف في هذا اليوم[3].

ليس من الإسلام أن تأكل ملء بطنك، وتضحك ملء سنّك، وتنام ملء

---

(١) في الحديث المتفق عليه عن ابن عمر قال: «فرض رسول الله ﷺ زكاة الفطر صاعاً من تمر، أو صاعاً من شعير على الحر والعبد، والذكر والأنثى، والصغير والكبير من المسلمين، وأمرنا أن تؤدى قبل خروج الناس إلى الصلاة»، ينظر: (شرح السنة للبغوي: ٦/ ٧١ برقم ١٥٩٤).

(٢) هذان الهدفان الأساسيّان لزكاة الفطر حدّدهما ابن عباس رضي الله عنهما في حديثه الذي رواه أبو داود وسكت عليه هو والمنذري، ورواه ابن ماجه، والحاكم وقال: صحيح على شرط البخاري ووافقه الذهبي ، ونصّه: «فرض رسول الله ﷺ زكاة الفطر طهرة للصائم من اللغو والرفث، وطعمة للمساكين، فمن أداها قبل الصلاة فهي زكاة مقبولة، ومن أدّاها بعد الصلاة فهي صدقة من الصدقات»، ينظر: (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ١/ ٣٣١ برقم ٥٧١)، وينظر أيضاً: (فقه الزكاة: ٢/(٩٢١ ـ ٩٢٢) ط. مؤسّسة الرسالة ببيروت، كلاهما للشيخ القرضاوي.

(٣) كما في حديث ابن عمر الذي رواه ابن عدي والدارقطني: «أغنوهم عن الطواف في هذا اليوم»، ينظر: (سبل السلام: باب صدقة الفطر)، وأخرج البيهقي والدارقطني عن ابن عمر قال: فرض رسول الله ﷺ زكاة الفطر وقال: «اغنوهم في هذا اليوم» وفي رواية البيهقي: «اغنوهم عن طواف هذا اليوم»، وأخرجه أيضاً ابن سعد في الطبقات من حديث عائشة وأبي سعيد (نيل الأوطار: باب زكاة الفطر).

جفنك، وتجمع على موائدك ما لذّ وطاب من الطعام والشراب، وبجوارك أناس لا يجدون ما يمسك الرمق أو يطفىء الحَرَق، من يئنّ من الجوع أنين الملسوع، ولا يجد شيئاً يُقدّم إليه.

لئن جاز هذا في أيّ وقت ـ وهو غير جائز ـ لا يجوز في أيام الفرحة.. في أيّام العيد، لهذا شرع الإسلام في عيد الفطر زكاة الفطر، إسعافاً للفقراء وإغناء لهم.

الأضحية في عيد الأضحى:

وشرع في عيد الأضحى الأضحية، جعلها سنّة من سننه، بل رآها الإمام أبو حنيفة واجباً من الواجبات على أهل القدرة واليسار.

يضحّي المسلم ليوسّع على نفسه وأهله، وليوسع على جيرانه وأحبابه، ثمّ ليوسّع بعد ذلك على الفقراء من حوله، فلا عاش من يأكل وحده.

لا يجوز للناس أن يعيشوا في دائروا مغلقة على أنفسهم، وإنّما ينبغي أن يبحثوا عن أهل الفقر والحاجة، وخصوصاً في أيّام الأعياد ومواسم الخيرات.

قرّر هذا الإسلام قبل أن تعرف الدنيا ما يسمّى الاشتراكيّة أو الشيوعيّة أو غير ذلك.

إنّما يريد الإسلام أن يكون الناس إخوة متحابّين، ولا أخوّة ولا تحاب بين إنسان عنده كلّ شيء وإنسان ليس عنده شيء، لا أخوّة بين ظالم ومظلوم، لا أخوّة بين من يضع يده على بطنه يشكو زحمة التخمة، ومن يضع يده على بطنه يشكو عضّة الجوع!

إنّما الأخوّة الحقيقيّة حينما يتراحم الناس.. يتكافل الناس، يكفل بعضهم بعضاً، يصبّ الغنيّ على الفقير، يأخذ القويّ بيد الضعيف: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟

﴿بِٱلْمَرْحَمَةِ ۝١٧ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝١٨﴾ [البلد: ١١ ـ ١٨].

في العيد يتجلّى المعنى الإنسانيّ: أن يهنىء كلّ مسلم أخاه المسلم، أن يزيل الفجوة أو الجفوة بينه وبينه، أن يقطع الخصومة ويصلح ذات البين، فإنّ فساد ذات البين هي الحالقة، أما إنّها لا تحلق الشعر ولكن تحلق الدين[1].

لئن جاز للناس أن يتخاصموا أو يتدابروا في أيّام أخرى ـ وهذا غير جائز في أيّ وقت ـ فلا يجوز لهم أن يتدابروا ويتقاطعوا ويتخاصموا في أيّام الأعياد.

ابحث عن قريبك.. عن أخيك.. عن رحمك.. عن جيرانك.. عمنّ حولك، صل من قطعك، وابذل لمن منعك، وأعط من حرمك، واعفُ عمنّ ظلمك، وأحسن إلى من أساء إليك، فهذه مكارم الأخلاق التي بُعث النبي ﷺ ليتمّمها: «إنّما بعثت لأتمّمّ مكارم الأخلاق»[2].

عيد ولا فرحة من الأعماق:

أيها الإخوة: من شأن يوم العيد أن يكون يوم فرح، ويوم سرور وابتهاج، قد قالوا: إنّما سمّي العيد عيداً، لأنّ السرور يعود فيه ويتكرّر.

ولكنّنا ـ للأسف الشديد ـ نحن المسلمين تأتي علينا الأعياد عيداً بعد عيد، نحاول أن نفرح، نحاول أن نبتهج، نحاول أن نبستم ابتسامة تخرج من أعماق قلوبنا، ولكنّا إذا نظرنا في حال المسلمين تقطّعت أكبادنا، ودمي فؤادنا،

---

(١) عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟» قالوا: بلى، قال: «إصلاح ذات البين، فإنّ فساد ذات البين هي الحالقة» رواه أبو داود، وابن حبان في صحيحه، والترمذي وقال: حديث صحيح. قال: ويروى عن النبي ﷺ أنّه قال: «هي الحالقة، لا أقول تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين» (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ٢/٧٣٨ برقم ١٦٩٥).

(٢) أورده مالك في الموطّأ بلاغاً عن النبي ﷺ، وقال ابن عبد البر: هو متصل من وجوه صحاح عن أبي هريرة وغيره مرفوعاً. انظر: (تمييز الطيب من الخبيث: ص٣٧) ط. دار الكتاب العربي ببيروت، و(المقاصد الحسنة: برقم ٢٠٤)، و(كشف الخفاء: برقم ٦٣٨).

حسرة على ما وصل إليه حالنا.

نحاول أن نفرح، وكيف نفرح وهذا حالنا، قديماً قال أبو الطيب المتنبي في أحد الأعياد:

عيدٌ بأيّة حال عُدت يا عيد؟ بما مضى أم لأمر فيك تجديدُ؟
أمّا الأحبّة فالبيداءُ دونهم فليت دونك بيداً دونها بيدُ!

كان همّ المتنبي في هذا العيد الذي لم يفرح به: بُعْدُ الأحبّة عنه، ولو كانت مصيبتنا (بعد الأحبة) لهان الأمر.

لا زالت قضايانا معلّقة:

إنّ مصيبتنا كبيرة نحن المسلمين، لا زالت قضايا معلقة، لا زلنا نشكو مما أصاب الأمّة الإسلاميّة.

الصهيونيّة وفلسطين:

لا زال الصهاينة يحتلّون فلسطين، لا زال المسجد الأقصى أسيراً في أيديهم، لا زالوا يخطّطون لهدم المسجد الأقصى وبناء هيكل سليمان، لا زالوا يعملون ليل نهار، يخطّطون ويدبّرون لتمزيق أمتنا العربية والإسلامية، وهم للأسف ينجحون يوماً بعد يوم.

كنّا نظنّ أمرهم هيّناً، وكنّا نعتقد أنّ وجودهم سحابة صيف، أو إقامة ضيف! وأنهم لن يستمرّوا طويلاً، ولكنّهم استمروا وكثروا، لماذا؟ لا لأنّهم أصحاب حق ونحن أصحاب باطل، لا، ولكن لأنّهم خططوا وارتجلنا، وعملوا وتكاسلنا وتجمّعوا على باطلهم، وتفرّقنا عن حقّنا!

ثمّ إنّنا أهملنا مصدر قوتنا. سرّ قوّتنا، وصانع النصر في تاريخنا، وهو: التمسّك بالإسلام.

تمسّكوا هم باليهوديّة ولم نتمسّك نحن بالإسلام، دخلنا المعارك نحن وهم، ومعهم التوراة وليس معنا القرآن، دخلوا المعارك ومعهم إيمان بالتراث

والتلمود، ونحن نهزأ من البخاريّ ومسلم.

لهذا كانت النتيجة: أن ظلّوا إلى اليوم في فلسطين، بل يحلمون بإسرائيل الكبرى، من الفرات إلى النيل!

لا زالت قضايا معلقة.

لبنان والحرب الأهليّة:

لا زال لبنان يعاني ممّا يعاني من الصراع الداخلي، والحرب الأهليّة، لا زال المسلمون الصادقون يعانون الجراح، لا زالت الصهيونيّة وعملاؤها تخرّب في لبنان، وتبعث عملاءها يُقتّلون ويُذبحون.

لقد بلغ، بأهل المخيّمات من أبناء فلسطين الذين طال عليهم الحصار شهراً بعد شهر، واشتد عليهم الجوع ـ والجوع كافر ـ أن أفتاهم من أفتاهم بأن يأكلوا لحوم الموتى!

أين المسلمون؟ أين أهل النّجدة؟

أجل، لا زالت قضايا معلّقة.

الجهاد في أفغانستان والفلبين وإريتريا:

في أفغانستان يجاهد إخواننا هناك جهاد الأبطال، يبذلون الأرواح، يريقون الدماء، يقفون في وجه القوة العاتية الكبرى بما لديهم من إمكانات صغيرة، ولكنهم استطاعوا أن يقهروا هؤلاء، وأن يستولوا على معظم أراضي أفغانستان[1].

---

(١) ونحن اليوم ـ إزاء ما يحدث بينهم من اقتتال دام مرير لا مبرّر له قلب العرس إلى مأتم ـ لا نملك إلاّ أن ندعو الله أن يجمع قلوبهم، ويحقن دماءهم، ويلهمهم الرشاد، ويقيهم شرور أنفسهم والكائدين من حولهم، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله.

ولكنّ القضيّة لا زالت تحتاج إلى وقود دائم من الرجال والأموال والسلاح.

لا زال إخواننا يقاتلون في الفلبين، لا زال إخواننا يقاتلون في أريتريا، لا زالت الأقليّات الإسلاميّة تُضطهد هنا وهناك.

المسلمون في الهند:

تصوّروا: المسلمون في الهند يُعتبرون أقليّة، ولكنّهم أكثر من مائة مليون مسلم، ومع هذا نقرأ ونسمع ما بين آونة وأخرى مجازر بشريّة تقام للمسلمين، يُذبحون فيها ذبح الأغنام أو البقر، لا، فإنّ البقر لا تُذبح بل تُعبد هناك، والأغنام لا تُذبح.

لا يذبح هؤلاء شيئاً فيه روح، لا يذبحون دجاجة، بل لا يستخدمون شيئاً ممّا يبيد الحشرات.

دخلت بعض الفنادق هناك، وكنّا نشكو من البعوض ولكنهم لا يسمحون بشيء يقتل البعوض لأنّه ذو روح، الشيء المستباح هناك هو دماء المسلمين، كأنّ المسلمين أناس ليس لهم أرواح!

هذا ما يحدث لإخوتنا من أهل الإسلام.

مليار من المسلمين، ولكنهم كغثاء السيل:

المسلمون في كلّ مكان مضطهدون، لماذا؟ ألأنّ المسلمين قلّة في العدد؟ لا.. والله، لقد زادوا على المليار.. على الألف مليون، تُقدّر الإحصاءات المسلمين اليوم بألف وثمانين مليوناً (١٠٨٠) أو تزيد.

ولكن ما قيمة أعداد هي كثرة كغثاء السيل كما سمّاه النبي ﷺ؟!

في الحديث الذي رواه أحمد وأبو داود عن ثوبان رضي الله عنه: «يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها. قال قائل: يا رسول الله ومن

قلّة يومئذ؟ قال: لا بل أنتم كثير، ولكنّكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعنّ الله من صدور عدوّكم المهابة منكم، ولتعرفنّ [في أبو داود: وليقذفنّ الله] في قلوبكم الوهن. قال قائل: يا رسول الله وما الوهن؟ قال: حبّ الدنيا وكراهية الموت»[1].

الأمّة في مرحلة الغثاء والوهن النفسي:

نحن الآن ـ للأسف ـ في مرحلة الغثائية: «غثاء كغثاء السيل»، أمّة بالملايين ولكنّها كالغثاء، والغثاء: ما يحمله السيل من القشّ والورق والحطب والعيدان، أشياء تجمعها الخفّة السطحيّة ودعم التجانس وأنّه لا هدف لها، السيل ليس له هدف، النهر له هدف ومجرى ومصبّ، ولكن السيل لا هدف له ولا مجرى.

الأمّة في هذه المرحلة «غثاء كغثاء السيل» ولذلك طمع فيها من لا يدفع عن نفسه، غلبها كُلُّ مُغَلَّب، تجرّأ عليها الجبان، تعزّز عليها الذليل.

أرأيتم أذلّ من اليهود؟ ﴿أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾[2] [البقرة: ٩٦]، الذين ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ﴾[3] [البقرة: ٦١]، الذين عاشوا طويلاً في رحاب المسلمين وفي كنف الإسلام، يوم طردتهم الدنيا من شرق وغرب، لم يجدوا صدراً حنوناً إلاّ صدر الإسلام في دار الإسلام.

انقلب هؤلاء علينا، واحتلّوا ديارنا، وأخرجوا أهلها من أرضهم وديارهم.

لم هذا كلّه؟

إنّه العامل النفسي.. الوهن.. حبّ الدنيا وكراهية الموت.

إنّنا إذا أردنا أن نخرج من مرحلة الغثاء إلى مرحلة التأسيس والبناء،

---

(١) ينظر (شرح السنة للبغوي بتحقيق الشاويش والأرناؤوط: ١٥/١٦، الحديث ٤٢٢٤).

(٢) قال تعالى: ﴿ولتجدنهم أحرص الناس على حياة...﴾.

(٣) قال تعالى: ﴿وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباؤوا بغضب من الله، ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾.

فينبغي علينا أن نبني الإنسان، بناء الإنسان هو الحلّ الذي لا حلّ غيره.

إنّ المسلمين يشكون في كل مكان، يشكون من التخلّف، يشكون من التشتّت والتفرّق، يشكون من انهيار الأخلاق، يشكون من فساد السياسة والاقتصاد، يشكون من فساد الإدارة، يشكون ويشكون.

كلّما جلست في منتدى ـ صغير أو كبير ـ وجدت النّاس يشكون، في مصر يشكون، في الخليج العربي يشكون، خارج العالم العربي يشكون.

الناس هنا يشكون، يشكون من الغلاء، يشكون من سوء الحال، يشكون من الديون، يشكون من اضطراب الأمن، يشكون من ضياع الأخلاق، يشكون من كذا وكذا.

أوّل العلاج بناء الإنسان:

ولكن ما علاج هذا كلّه؟ وما قيمة الشكوى بلا عمل؟

الناس يشكون ولا يتقدمون للعمل والبناء، ينبغي أن تقترن الشكوى بالعمل، بل أن ندع الشكوى ونبدأ العمل، وأوّل العمل: بناء الإنسان.

الإنسان ـ بإذن الله ـ هو الذي يحيي البلد الميّت، ويخضّر الحياة اليابسة، الإنسان هو الذي يصنع الحضارة، هو الذي يُنشيء النهضة، هو الذي يقوّم الأعوج، ويصلح الفاسد، بدون الإنسان لا يمكن أن يقوم بناء حضاريّ، لا يمكن أن تقدّم أمّة.

وضعنا بين الأمس واليوم:

نحن العرب والمسلمين صرنا اليوم في ذيل القافلة البشريّة، كنّا في مطلع القافلة.. في مقدّمتها.. في مأخذ الزمام منها، قروناً طويلة، قُدنا الحضارة، كنّا أمام البشريّة، أقمنا حضارة ربانية.. إنسانيّة.. أخلاقيّة.. عالميّة، اجتمع فيها العلم والإيمان، توازنت فيها الروحية والمادية، وتكامل فيها نور الوحي

ونور العقل، كما التقى فيها الإبداع المادي والرقي الأخلاقي.

أقمنا حضارة متوازنة، حضارة وسطاً، لأمّة وسط، ذات منهج وسط.

كانت الحضارة الإسلاميّة هي الحضارة الوحيدة في العالم، كانت اللغة العربية هي لغة هذه الحضارة، كانت الجامعات الإسلاميّة هي موئل طلاّب العلم من أوروبّا وغيرها، كانت الكتب الإسلاميّة هي مراجع الدارسين في أنحاء الدنيا، كانت أسماء علماء المسلمين ألمع الأسماء في عالم العلم.

بلغنا من القوّة ـ في وقت من الأوقات ـ أن سمع عمر بن عبد العزيز بأسير مسلم أُهين في بلاد الروم، فكتب إلى ملك الروم: أما بعد، فقد بلغني أنّك أهنت مسلماً كتب الله له الكرامة والعزّة، فإذا بلغك كتابي هذا فخل سبيله، وإلاّ غزوتك بجنود أوّلها عندك وآخرها عندي.

ولم يسع هذا الملك إلاّ أن يطلق سراح الأسير المسلم.

بلغ مجدنا أن جلس هارون الرشيد يوماً، فرأى سحابة في السماء، فقال: أيتها السحابة، شرّقي أو غرّبي، وأمطري حيث شئت، فسيأتي خراجك إلى بيت مال المسلمين.

إذا أمطرت في بلاد المسلمين جاءت الزكاة لبيت مال الزكاة، وإذا أمطرت في بلاد غير المسلمين جاء الخراج للمسلمين.

كنّا سادة الدنيا يوم كنّا متمسّكين بالإسلام.

والناظر في التاريخ الإسلامي.. في الامتداد والانكماش.. في المدّ والجزر.. في النصر والهزيمة.. في القوة والضعف، يجد أنّنا ننتصر، ونقوى، ونعتزّ، ونسود، ويعّمنا الرخاء والازدهار، حين نقترب من الإسلام ونضعف، ونذلّ، ونُهزم، ونصبح مضغة في أفواه الأمم، يوم نبتعد عن الإسلام.

انظر أيام الراشدين، انظر أيام عمر بن عبد العزيز، انظر أيام الرشيد والمأمون، انظر أيام نور الدين محمود وصلاح الدين الأيّوبي، كلّما وجدت اقتراباً

من الإسلام الحقيقي، وجدت القوة والنهضة والازدهار والعزّة والنصر.

حتى إذا تركنا الإسلام تركنا الله عزّ وجلّ ووكلنا إلى أنفسنا، وإذا وكل الله امرءاً إلى نفسه فهيهات أن يتحقق له نصر، أو يتحقق له سيادة.

إذا أردنا حلّ مشكلاتنا، فلا حلّ لمشكلاتنا إلاّ بالعودة إلى الإسلام.. كلُّ الإسلام.

ليس الإسلام هو الحدود:

ليس الإسلام ـ أيّها الإخوة ـ كما يتصوّر بعض الناس ـ ومنهم بعض الدعاة إلى الإسلام ـ محصوراً في إقامة الحدود، في أن تقطع يد السارق، أو تجلد السّكّير أو الزاني، أو تقيم الحدّ على المرتدّ.

لا، ليس هذا هو كلّ الإسلام، بل هذه الأشياء من أواخر ما نزل في الإسلام، معظم الحدود نزلت في سورة (المائدة) وهي من أواخر ما نزل من القرآن.

إنّما قبل أن نقيم الحدود، نريد أن نربي الناس على الإسلام، نريد أن ننشىء الإنسان المسلم، نريد أن نزيل العوائق من طريق الإسلام، العوائق التي تحول بين الناس وبين الرجوع إلى الله تبارك وتعالى.

نريد إعلاماً إسلاميًا، نريد تعليماً إسلاميًا، نريد ثقافة إسلاميّة، نريد فنوناً إسلاميّة، نريد أسرة إسلاميّة، نريد تقاليد إسلاميّة، ثمّ نريد ـ بعد ذلك ـ قوانين إسلاميّة.

إنّ تطبيق الشريعة الإسلاميّة ـ الذي أصبح مطلباً جماهيرياً في ديار الإسلام ـ لا يعني مجرّد تغيير القوانين المستوردة بقوانين إسلاميّة، القوانين وحدها لا تصنع المجتمعات، ولا تحيي ضمير الإنسان، وخاصّة قانون العقوبات.

إنّما الذي يصنع الإنسان هو التربية المستمرّة، هو التوجيه الدائم، يقوم

عليه البيت، والمدرسة، والجامعة، والمسجد، والإذاعة، والتلفاز، وكلّ أجهزة التوجيه والتثقيف والترفيه والإعلام والتعليم.

نريد الإنسان المؤمن:

إنّ حلّ مشكلاتنا إنّما يكمن في بناء الإنسان المؤمن، إذا بنيت هذا الإنسان المؤمن فهو المفتاح الذي به يُفتح كلّ مُغلق، وبه يعالج كلّ داء، وبه تنحلّ كلّ مشكلة.

هيهات أن يجد النّاس حلاً لما يعانون، ماه دام أولئك الذين نراهم في كلّ مكان عن يمين وشمال، من موتى الضمائر الذين لا يبالون ما أكلوا، من حلال كان أم من حرام، الذين لا يبالون أن يبنوا قصوراً ولو من جماجم البشر، وأن يزخرفوها بدماء خلق الله.

هؤلاء لا تصلح بهم دنيا، ولا ينهض بهم دين.

هؤلاء الذين يتاجرون في السموم.. في المخدرات، من أجل أن يكسبوا أموالاً، ولو على حساب إخوانهم وأهليهم وجيرانهم، يريد كل منهم امتلاك ثروة طائلة، ولو قتل الألوف والملايين من الناس.

تجّار المخدرات.. تجار الأغذية الفاسدة.. تجار الجنس.. تجار العملة.. تجار السوق السوداء.. الذين يقبلون الرشوة.. الذين يفسدون الحياة، كلّ هؤلاء إنّما حدث منهم ما حدث لفقدان الإيمان، هذه الجمرة المتقدة في الصدور قد انطفأت، الشعور برقابة الله تبارك وتعالى لم يعد قائماً.

نريد الإنسان الذي يشعر برقابة الله عليه قبل رقابة النّاس، الذي يقول ما قالته تلك الفتاة الصغيرة: إذا كان أمير المؤمنين لا يرانا فإن ربّ أمير المؤمنين يرانا، الذي يقول ما قاله ذلك الراعي العبد المملوك لعمر بن الخطاب حينما جاع في طريقه إلى الحج، فوجد راعياً يرعى غنماً، فذهب إليه وقال له: يا هذا بعنا شاة من غنمك، فقال: يا صاحبي إنّها ليست غنمي، أنا مملوك ولا أملك منها

شيئاً ـ وهو لا يعرف عمر، فلم يكن مع عمر ما يدلّ على أنّه أمير المؤمنين، لا جنود ولا خدم ولا هيل ولا هيلمان ـ فأراد عمر أن يختبره فقال له: خذ ثمنها وقل لسيّدك: أكلها الذئب، فقال: يا هذا فأين الله؟ أي: إذا قلت هذا لسيدي الأصغر، فماذا أقول لسيّدي الأكبر؟! إذا استطعت أن أكذب على المخلوق، فكيف لي أن أكذب على الخالق؟!

عبد مملوك قال هذا لعمر فسأل عمر عن سيّده واشتراه منه وأعتقه، وقال له: أعتقتك هذه الكلمة في الدنيا من الرّق، أرجو أن تعتقك في الآخرة من النار.

متى تكتمل فرحتنا بالعيد؟:

يا أيها الإخوة: إنّ يوم العيد يوم فرحة وسرور، وكان بودّنا أن نفرح بعيدنا، ولكن آلام المسلمين تُدمي القلب، ولا تجعل الفرحة تغمر أفئدتنا كما ينبغي.

نحن نفرح حقاً يوم تعلو كلمة الإسلام في دنيا النّاس، يوم تحكم شريعة الخالق دنيا الخلق، يوم تشرق أنوار السماء على ظلمات الأرض، يوم تكون كلمة الله هي العليا وكلمة أعدائه هي السفلى: ﴿.. وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ..﴾ [الروم: ٤ ـ ٥].

وقبل ذلك ستظلّ الأعياد باهتة لا معنى لها، لأنّ الأمّة لم تعد لها هويتها الحقيقيّة، سنظلّ نردّد قول الشاعر (محمود غنيم) رحمه الله في أحد الأعياد في قصيدة له:

قالوا: عجبنا ما لشعرك باكياً ... في العيد؟ ما هذا بشأن معيّد!

ما حيلة العصفور قصوّا ريشه ... ورموه في قفص، وقالوا: غرّد؟!

نحن هذا العصفور المهيض الجناح، المنتوف الريش، لا نستطيع أن نغرّد في الأعياد، حتى نرى أمّتنا كما أراد الله لها: تتبوّأ مكانتها تحت الشمس.

صحوة الشباب المسلم هي الأمل:

ولكن الذي يعزّينا، ويملأ قلوبنا بالثقة، وأفئدتنا بالأمل والرجاء، هو هذه (الصحوة الإسلاميّة) التي نراها في كلّ مكان، صحوة أبناء الإسلام وخصوصاً من الشباب والشابّات، هؤلاء الذين نهضوا بعد ركود، وتحرّكوا بعد جمود، واستيقظوا بعد رقود، وعرفوا أن الإسلام حق، فاستمسكوا بعراه ـ بالعروة الوثقى لا انفصام لها، تمسّكوا بالإسلام: عقيدة وشريعة، وأخلاقاً وحضارة، ورابطة وأخوّة. ومنهاجاً شاملاً للحياة، تمسّكوا بالإسلام: عملاً به، وعملاً له، ودعوة إليه، وجهاداً في سبيله.

هذا الشباب ـ كما قلت وأقول دائماً ـ هو أثمن ما في البلاد الإسلاميّة، وأنفس ما فيها.

إذا كان في البلاد الإسلاميّة: ذهب أسود يتمثّل في النّفط، أو ذهب أبيض يتمثّل في القطن، أو ذهب أصفر، أو غير ذلك، فأغلى من الذهب وأنفس من الجواهر هو: هذا الشباب.. هؤلاء الربّانيّون، الصوّام القوّام، الذين رأيتهم في الشرق والغرب: توّابين متطهرين، راكعين ساجدين، آمرين بالمعروف، ناهين عن المنكر، حافظين لحدود الله.

انظر إلى المساجد، من يعمرها ؟

كان الذين يرتادون المساجد قديماً: الشيوخ الكبار، الذين أُحيلوا على المعاش، الذين أكل الدهر عليهم وشرب، فأرادوا أن يختموا الحياة برجعة إلى الله.

كنت قلّما تجد شاباً.

روّاد المساجد الآن معظمهم من (الشباب).

انظر مواسم الحج ومواسم العمرة: كان الناس قديماً يختمون حياتهم بالحج، إذا اقترب الإنسان من القبر قال: الحج هو تمام الأمر وختام العمر.

الآن معظم الذين يزحمون مواسم الحج والعمرة من (الشباب).

(الشباب) الآن هو الذي يقاتل في أفغانستان، هو الذي يقاتل في الفلبين، هو الذي يعمل لإعلاء كلمة الإسلام.

الذين ينادون بالشريعة الإسلاميّة هم (الشباب).

(الشباب) هم عماد الأمّة، هم ذخيرة مستقبلها، هم الذين يصدق فيهم قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: ٣١].

إنّ الصحوة الإسلاميّة هي أملنا، هي رجاؤنا، هي غدنا إن شاء الله.

الفقه المنشود لشباب الصحوة:

كلّ ما نرجوه من أبناء هذه الصحوة أن يُحسنوا فقه الإسلام وفقه الواقع، أن يعرفوا أحكام الله في شرعه، وسنن الله في خلقه، ألاّ يتعجلوا، ألاّ يقطفوا الثمرة قبل أوانها، ألاّ يستخدموا العنف في غير حاجة إليه.

العنف مرفوض:

لماذا يفكّر بعض الشباب في العنف؟

إنّما يستعمل العنف (اليائس) الذي لا يجد استجابة ولا تجاوباً من النّاس، ولكنّنا ـ بحمد الله ـ نجد الإسلام ينتشر وينتشر، والدعوة إليه تمتد وتمتد، والمقبلين عليه يزيدون ويزيدون، يوماً بعد يوم.

المستقبل لنا، الشعوب معنا، الجماهير معنا، فلماذا نتحاور بالسلاح، ولا نتحاور بالكلمات؟

إنّ الذي يستخدم منطق القوة، هو الذي يعجز عن قوّة المنطق. والدعاة إلى الإسلام معهم المنطق الذي لا يُغلب، والحجّة التي لا تُدحض، والنّور الذي لا يُطفأ.

نحن معنا الحق الذي قامت به السموات والأرض، معنا الله، معنا

ملائكته، معنا المؤمنون، معنا الشعوب.

الشعوب بفطرتها مع الإسلام، فلماذا نستعجل؟

والله إنّ المستقبل مستقبل الإسلام.

لو أحسنّا الصبر، وأحسّنا العمل، وصبرنا على طول الطريق، فسنجد هذه الأمّة معنا.

المستقبل للإسلام في مصر:

إذا كان هذا صادقاً في كلّ الشعوب الإسلاميّة، فهو أصدق ما يكون في بلدنا هذا.. في مصر. مصر مسلمة بفطرتها. بتاريخها، لا يحرّكها شيء كما يحرّكها الإسلام، لا ينفذ إلى قلوبها شيء كما تنفذ إليها كلمة الإيمان، لا تُقاد بشيء كما يقودها المصحف.

حينما نادى المنادون بشعارات القوميّة والاشتراكيّة والماركسيّة وغيرها، هل وجدوا استجابة؟ هل وجدوا من يجيبهم؟ هل انتصروا في معركة؟ لا.

ولكن يوم رُفع شعار (الله أكبر) ماذا صنعت هذه الأمّة؟ ماذا صنع هذا الشعب؟ صنعوا العجائب.

(الله أكبر) هي التي تقود هذه الأمّة.

فيا شباب الإسلام.. يا شباب الصحوة.. يا أبناء الدعوة.

افقهوا هذا جيّداً، تعاملوا مع هذه الأمّة برفق: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ﴾ [النحل: ١٢٥].

ارفقوا، فـ «إنّ الله يحبّ الرفق في الأمر كلّه»[1]، وما دخل الرفق في

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب، ومسلم في السلام (شرح السنة للبغوي بتحقيق الشاويش والأرناؤوط: ١٣/ ٧٣).

شيء إلاّ زانه، ولا نُزع من شيء إلاّ شانه[1].

عليكم بالاعتدال.. بالوسطيّة، فهي إحدى خصائص الإسلام الكبرى.

ابتعدوا عن الإفراط وعن التفريط، عن الغلوّ وعن التقصير، والزموا المنهج الوسط، الذي سمّاه الله تعالى: الصراط المستقيم، وعلّمنا أن ندعو إليه دائماً في كلّ يوم في صلواتنا: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ [الفاتحة: ٦ ـ ٧].

إنّ مصر تظلّ في الطليعة من ديار الإسلام، ويجب أن تظلّ في الطليعة، ففيها الحركة الإسلاميّة الأمّ، وفيها (الأزهر) العتيد، وفيها التدّين الأصيل، وإننا لواثقون أنّها ستقود ـ بإذن الله مسيرة الإسلام الصحيح.. الإسلام العملي.. الإسلام الواقعيّ.. الإسلام الوسطي، وإنّنا لمنتظرون هذا اليوم الذي تسود فيه أحكام الله، وتعلو فيه شرعة الله، وتجتمع الأمّة على كلمة الله.

لا ندعو إلى عصبيّة ولا طائفيّة:

إنّنا حين ندعو إلى الإسلام، لا ندعو إلى عصبيّة، ولا إلى طائفيّة، بل ندعو إلى المثل العليا، إلى القيم الرفيعة، التي جاءت بها النبوّات جميعاً، جاء بها موسى وعيسى والنبيون من قبل، ولأن يحكم الإنسان المسيحي شرعة منبثقة من دين، خير له من أن يحكمه قانون لا مكان للدين فيه.

إنّ الإسلام هو دين الإنسانيّة كلّها، فحين ندعو إليه، ندعو إلى خير وطننا، وخير أمّتنا العربيّة، وخير أمّتنا الإسلاميّة، وخير الإنسانيّة، كلها، وصدق الله العظيم: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ۝١٠٧﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

---

(١) روى مسلم في صحيحه عن عائشة عن النبي ﷺ أنّه قال: «إنّ الرفق لا يكون في شيء إلاّ زانه، ولا يُنزع من شيء إلاّ شانه» (شرح السنة للبغوي: ١٣/ ٧٥ برقم ٣٣٩٣).

يا أبنها الصحوة الإسلامية:

هذا يومكم.. يوم العيد، وهذا غدكم المأمول، أنتم ـ إن شاء الله ـ طلائع النصر.. طلائع البعث، أنتم المرجون للغد، المأمولون للمستقبل، فكونوا عند حسن الظّنّ بكم والثقة فيكم، أهلاً للعمل والدعوة والجهاد في سبيل الإسلام، حتى يعلي الله كلمته، وينجز وعده: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ۝٧﴾.

﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٧].

﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

وصلّ اللّهم على سيّدنا محمد، وعلى آله وصحبه، وسلّم.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم، وتقبّل الله منّا ومنكم، وكلّ عام وأنتم بخير.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.